

صور سياحة

٦ - يوم في فرساي

بقلم سائح متجول

في باريس جمهرة من الصروح والشاهد التاريخية العظيمة التي تجذب الزائرين بماضيها وروعها ؛ ولكن فرساي تتمتع بشهرة خاصة في التاريخ والسياسة ؛ وقد كانت مسرح بعض الأحداث العالمية الكبرى التي غيرت مسار التاريخ والأمم ؛ وبستان فرساي آية في العظمة والروعة والجمال فتي كنت في باريس ، فيجب ألا تفوتك زيارة فرساي وقصرها العظيم

وفرساي في الواقع من ضواحي باريس ، ولا تبعد عنها أكثر من ثمانية عشر كيلو متراً ؛ وفي وسعك أن تصل إليها بواسطة قطر خاصة من المترو تسير إليها يوم الأحد ، وفي وسعك أن تقصد إليها بواسطة القطار العادي من محطة مونبارناس وفرساي مع ذلك مدينة كبيرة يبلغ سكانها زهاء ستين ألفاً تخترقها شوارع كبيرة ، وبها كثير من الفنادق والطعام التي أعدت على ما يظهر خصيصاً للوافدين عليها ؛ وفي يوم الأحد تبدو فرساي كأنها في عيد ، وتكثر فيها الحركة بما يتقاطر عليها من وفود الزائرين من أهالي باريس ، ومن الأجانب من مختلف الأمم

قصدنا إلى فرساي في صباح يوم أحد بالقطار العادي ، وكان غامساً بالقاصدين إليها من فرنسيين وأجانب ؛ وكان يوماً بديعاً سطمت شمس بعد أن أزهجنا الطر في باريس أياماً متوالية ؛ فوصلنا إلى فرساي في نحو نصف ساعة ؛ وقصدنا إلى القصر توأ ، وهو قريب من المحطة ، يشرف على ساحة واسعة ؛ ولفت نظرنا لأول وهلة كثرة الجند الذين يتجولون في المدينة ، وفي فرساي كما علمنا حامية كبيرة

ومن الغريب أن واجهة القصر الخارجية لا تتمتع بكثير من الجمال والروعة ، ومنها يبدو البناء كأنه مصمك ضخم ؛ ولقد ذكرنا ذلك بواجهة قصر الفانتيكان الخارجية التي لا تدلى بشيء من عظمتها الداخلية ؛ بيد أننا كدنا نجوز إلى ساحة القصر

متصلة بالأحلام وأنواعها نكتفي بأن نشير إلى بعضها . روى ابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الرؤيا ثلاث : فبشرى من الله ، وحديث من النفس ، وتخويف الشيطان . وفي الصحيحين : « الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان . والمتزلة يرون في الأحلام آراء مختلفة : فيرجعها بعضهم إلى الله ، ويذهب بعض آخر إلى أنها من فعل الطباع ^(١) ومنهم من يجمع بين هذين ويقول إنها على ثلاثة أنحاء : نحو يحذر الله به الإنسان في منامه من الشر ويرغبه في الخير ، ونحو من قبل الإنسان ، ثم نحو أخير من قبل حديث النفس والفكر ^(٢) . ويقول النظام إن الرؤيا خواطر مثل ما يُخَطِرُ البصر ^(٣) . وهذا التفسير على اختصاره يحمل في ثناياه بعض الأفكار الأرسطية

إلا أن رأى أرسطو في الأحلام يبدو بشكل واضح لدى الفلاسفة . وقد خلف الكندي رسالة في ماهية النوم والرؤيا سبق أن أشرنا إليها . وهذه الرسالة لا تزال حتى اليوم بين مخطوطات استامبول ، ونرجو أن نوفق إلى نشرها قريباً ^(٤) وقد وقفنا عليها من طريق آخر ، فإن المستشرق الايطالي بينوناجي نشر في أخريات القرن الماضي بضع رسائل للكندي مترجمة إلى اللاتينية ^(٥) وبين هذه الرسائل واحدة عنوانها *De somno et visionibus* (النوم والرؤيا) ، ويكاد يكون من المحقق أن هذه الرسالة اللاتينية ليست إلا ترجمة للرسالة العربية المتقدمة . ونظرة إلى هذه الترجمة اللاتينية تكفي لأثبت أن الكندي تأثر تمام التأثر بأبحاث أرسطو السابقة المتعلقة بالنوم والرؤيا . وقد قارن بينوناجي بعض التعريفات الكندية بما يقابلها من التعريفات الأرسطية وأظهر في جلاء ما بينهما من قرابة ^(٦) . وبهذا وضع الفيلسوف العربي أساس نظرية الأحلام الفلاسفية في الإسلام

(تجميع) إبراهيم مسكود

(١) المصدر نفسه ، II ، ٤٤٣

(٢) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣ ، ٤٣٤

(٣) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣

(٤) Bitler , *Archiv Orientalni* IV 1932, p. 64.(٥) A I Kundl , *Die philos. Abh.* p 12 et suiv.(٦) *Ibid.* , p. xxiii.

وذخايره ؛ وتتكون هذه الطبقة من عدة أجنحة وأبهاء ملوكية شاسعة ، وتضم مجموعة ثمينة من الصور التاريخية التي تمثل كثيراً من المناظر الشهيرة والشخصيات الملوكية في عصر لويس الرابع عشر ، ولويس الخامس عشر ؛ ويشغل جناح الملك لويس الخامس عشر الطرف الأيمن من القصر ، وقد عرضت في غرفه الأنيقة مجموعات من الأثاث الملوكي النفيس ، ومنها أثاث غرفة الاستقبال ، وغرفة المكتبة وغرفة النوم ، والتزين وكلها مما لا يزال يعتبر في عصرنا من أجمل وأبدع النماذج الفنية ؛ وقد زينت الجدران بيمض الناظر الملوكية من حفلات الاستقبال والصيد وغيرها ، وزينت السقف بأبدع النقوش ؛ وتوجد في هذا الجناح مجموعة من الصور للملك لويس الخامس عشر وزوجه الملكة ماري لكونزكا ، وبعض أفراد الأسرة المالكة ورجال الدولة من صنع أعظم مصوري العصر ؛ وفي هذا الطرف أيضاً ، وإلى جانب جناح الملك يوجد الجناح الذي كان مخصصاً لسكنى خليلته المركيزة دي بومبادور ، ومن بعدها لسكنى خليلته الدوقة دوباري ، ومن الغريب أنه لا يبعد كثيراً عن الجناح الذي كان مخصصاً لسكنى الملكة الشرعية ماري لكونزكا

وبلى هذا الجناح ، في وسط القصر ، جناح لويس الرابع عشر ، وهو أنخم وأروع ، وبه غرفة نوم ملوكية مازالت تحتفظ بأثاثها ، وإلى جوارها ترى متزين الملك ، وخزائن الثياب ؛ وقد زين هذا الجناح بصور عديدة للويس الرابع عشر ، في أوضاع ومناسبات مختلفة ؛ والملك يبدو فيها جميعاً قصير القامة ، محدودب الأنف ، وقد انسدل على كتفيه شعره الغزير ، وبدت على وجهه ملامح الكبر والخيلاء

ويوجد في الطرف الآخر من القصر بهو شاسع تربته مجموعة كبيرة من الصور التاريخية الضخمة التي تمثل أعظم المواقف الحربية التي انتصرت فيها فرنسا منذ فجر العصور الوسطى حتى عصر نابليون ، وقد صورت معظم هذه المناظر في عصر نابليون واشترك في تصويرها أعظم مصوري العصر مثل لوي دافيد ، وإيزابي ، وفرنيه ؛ وتبدأ المجموعة بمنظر يمثل انتصار الملك كلوفيس على الرومان الداليين (سنة ٤٨٦ م) ، ويليه منظر استوقفنا طويلاً لروعته وطرافته ، هو منظر انتصار الفرنج على العرب في سهل ثوروبانييه سنة (٧٣٢ م) ، وهي الموقعة الشهيرة التي تعرف في

الداخلية ، ونشرف منها على بستانه العظيم حتى وقعنا على منظر من أروع ما شهدنا

يشرف قصر فرساي من الواجهة الخلفية على بستان شاسع ، قد نظم أبدع تنظيم ، ونمت به الأشجار الباسقة من أنواع لا نظائر لها في حدائقنا . وفي مقدمة البستان مما يلي القصر مباشرة بحيرة صغيرة ساحرة ؛ وأرض البستان مدرجة ، تمتد منحدره في حطائر بديمة من الأحراج الصغيرة ، وحطائر من الزهر تأخذ اللب بمنظرها وألوانها الرائعة ، ويطلع مناظر البستان كلها طابع ساحر من الرشاقة والأناقة والتنسيق

وقد حول قصر فرساي كما حول قصر اللوفر إلى متحف ، ولكن القصر في ذاته تحفة فنية رائعة ؛ وأعتقد أنه يفوق قصر اللوفر من حيث الجمال والخواص الفنية ، وإن كان اللوفر يفوقه من حيث الجلال والهيبه الملوكية ؛ ذلك أن قصر اللوفر كان مقر العرش ، ومقر الملوكية الفرنسية في أوج عظمتها وازدهارها ، ولم يكن قصر فرساي إلا مصيفاً ومقاماً مؤقتاً ، ولم ينفذ مقر البلاط الدائم إلا في قترات قليلة في أواخر عصر لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر

وقصر فرساي أحدث عهداً من قصر اللوفر ؛ وقد بدأ قصرًا متواضعاً أنشأه لويس الثالث عشر ؛ ولكن ولده لويس الرابع عشر فكر في أوائل حكمه في توسيع البناء وتحويله إلى قصر ملوكي عظيم الشأن ، فعهد بذلك إلى المهندس « لي فان » أشهر مهندسي العصر ، وخلفه في تلك المهمة المهندس مانسار ، ثم دي كوتيه ؛ وقام بتنظيم البستان وإنشائه « لي نوتر » وأشرف على زخرفة القصر الفنان « لي بران » وكلهم من أعلام هذا العصر الزاهر ، فجاء القصر وبستانه آية من آيات النخامة الملوكية والفن الرائع

وقد كان القصر في البدء مصيفاً ومقاماً مؤقتاً للملك وخاصته ، ولكنه غدا في عصر لويس الخامس عشر مقراً للملك والبلاط ، وكان لويس الخامس عشر يؤثر الإقامة فيه ويعض في معظم أوقاته يحيط به خاصته ، وتقيم فيه خليلاته إلى جانب زوجه الملكة الشرعية كما سنرى

ويتألف قصر فرساي من طبقتين غير الطبقة الأرضية ؛ والطبقة الثانية والوسطى هي أبدع ما فيه ، وهي التي تضم تحفة

على أن فرنسا اعترمت غداة ظفرها في الحرب الكبرى أن تحو هذه الصفحة المشجية وهذه الذكريات الأليمة من تاريخها وأن تتأثر لشرفها القومي من ألمانيا ، وأن ترغمها على أن توقع وثيقة انكسارها وذلتها في نفس المكان الذي اختارته ألمانيا من قبل لأرضها وإذلالها؛ ففي هذا البهو الشهير ذاته - بهو المرايا - وقعت ألمانيا معاهدة الصلح - أو معاهدة فرساي - التي فرضها عليها الحلفاء الظافرون في يونيو سنة ١٩١٩ ، والتي تقامها بمختلف الفروض والمغارم المسائلة ، وتقضى عليها برد الأزراس واللورين إلى فرنسا

وليس في بهو المرايا اليوم ما يذكرنا بأعظم معاهدة عرفها التاريخ سوى لوحة بسيطة مؤثرة كتب عليها . « في ٢٨ يناير سنة ١٩١٩ ، ردت الأزراس واللورين إلى فرنسا » وفي نهاية البستان التاسع من الناحية الأخرى صرحان آخران منمزلان هما قصر تريانون الكبير ، وقصر تريانون الصغير ؛ وقد أنشأ أحدهما لويس الرابع عشر ، وأنشأ الآخر لويس الخامس عشر ؛ وكلاهما حافل بالذكريات العذبة ، وكلاهما كان مسرحا لليالي والحفلات الباهرة ؛ وكان تريانون ملاذا محبوبا للملكة ماري أنتوانيت ، والامبراطورة جوزفين بوهارنيه زوج نابوليون

قضينا عدة ساعات في التجوال في هذه المهاد والمشهد التي تذكر الخيال إلى الذروة وتحملنا إلى عصور وعوالم أخرى ؛ وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما انتهينا من هذا التجوال المتع ، وغادرتنا القصر النيف والبستان التاسع إلى قباب المدينة حيث طفنا بطرقاتها برهة ، ثم عطفنا على مطعم تتناول فيه الغداء ، وقد رأينا أن الأثمان في فرساي ليست أقل ارتفاعا منها في باريس ، وأن موجة الغلاء الرهق التي قدمنا لك منها فيما تقدم أمثلة عديدة تم فرنسا بأسرها

ولقد كان يوم فرساي خاتمة التجوال في رحلتنا الباريزية ؛ وكانت الأقامة في باريس بما فيها من تكاليف وأتقال مرهقة ، وبما استوعبناه من مشاهدنا ولياليها المنهائلة ، قد أخذت تنقل على النفس ، فأزمنا مقادرة العاصمة الفرنسية إلى عواصم ومجتمعات أكثر ترحابا وأقل اعتنا وإرهاقا ، وأرفع خلا لا ومثلا

التاريخ الإسلامي بموقعة البلاط أو بلاط الشهداء ، وفيها يبدو عبد الرحمن الغافق قائد العرب شيخا مهيب الطلعة تتدلى لحيته البيضاء الطويلة حتى صدره ، وقد وثب بجواده المضطرم إلى الطليعة وهو شاهر سيفه ، ولكن جنده يتساقطون من حوله أمام ضربات الفرنج ؛ وأذكر أنني رأيت هذه الصورة منذ أعوام في طبعة إنكليزية لكتاب المستشرق دوزي عن الأندلس ، وكنت أتوق إلى معرفة الأصل الذي نقلت عنه ، فإذا بي في بهو فرساي أمام المنظر الرائع وجهما لوجه

وبلى ذلك في سفين متقابلين مناظر لأعظم المارك التي انتصرت فيها فرنسا مرتبة حسب العصور والتواريخ ؛ مواقع شارلمان ، ولويس الحادي عشر ، ولويس الرابع عشر ، وموقعة فاللي أشهر معارك الثورة الفرنسية ضد أوروبا ، ثم طائفة كبيرة من مواقع نابوليون مثل مارنجو ، فاجرام ، أوسترلتز ، وغيرها بيد أن أعظم ما يثير الخيال في أرجاء هذا القصر التاسع ، هو الذكريات التاريخية العظيمة التي كان مسرحا لها ، والتي أسبغت عليه طابعا خاصا من الروعة والخلود ؛ ففي قصر فرساي عقدت مؤتمرات ووقعت معاهدات كانت لها أكبر الأثر في تاريخ فرنسا وتاريخ العالم بأسره ؛ نذكر منها عهد استقلال الولايات المتحدة (أمريكا) الذي وقمته انكلترا في سنة ١٧٨٣ على أثر هزيمتها في حرب الاستقلال الأمريكية ، وقد وقع هذا العهد في قصر فرساي ترضية لفرنسا وتكريما لها لما بذلته من كبير عون للأمريكيين في هذه الحرب التحريرية ؛ وكانت نتيجة هذا العهد الخالد أن قامت في العالم الجديد أمة حديثة مستقلة من أعظم الدول الديمقراطية ؛ وفي سنة ١٨٧١ ، على أثر عنة فرنسا وهزيمتها أمام ألمانيا في الحرب السبعينية (سنة ١٨٧٠) أرغمت فرنسا على أن توقع وثيقة هزيمتها وذلتها في قصر فرساي نفسه ، في بهو المرايا الشهير Galerie des Glaces ، وهو البهو التاسع الذي يتوسط القصر فيطل على البستان من ناحيته ، وأرغمت على أن تتنازل لألمانيا عن الأزراس واللورين ؛ وفي بهو المرايا أيضا أعلنت الامبراطورية الألمانية ، وتوج أول امبراطور ألماني ، وهو فلهلم الأول (جيوم) ، وأجريت مراسم التتويج في نفس البهو بحضور ملوك الولايات الألمانية المتحدة ، وهذه ذكريات من أسود الذكريات وأتصها في تاريخ فرنسا القومي